

عَجُوزُ الصُّورِ الْمُتَحَكِّمِ

للكاتب الأسباني بلاسيكو إيبانيز
بقلم الأديب محمد محمود دواره

— سيدى الضابط ! ليست المرأة
التي أمامك سوى بائعة من البائعات
المتجولات . أبيع أنواع الخضر على
عربة يد صغيرة وقد اخترت لنفسى
شارع « تربى » فجملته منطقة تجارية
منذ أربعين عاماً يا سيدى أقوم بهذه

المهمة وأحيا تلك الحياة و ...

حاول الرئيس أن يقطعها ولكنها استمرت
في حديثها غير عابثة بمقاطعته بل بدأ في صوتها
لون من ألوان الاحتجاج
— ليدعى سيدى الضابط أتحدث كما أشاء .
إن كل امرئ يمر عن نفسه بقدر طاقته ، وكل
إنسان يتحدث على قدر عقله

فاعتدل الرئيس في جلسته وألقى رأسه إلى الوراء
ثم تناول فتاحة الرسائل بين أصابعه وأخذ في
تحريكها بمنة ويسرة . لقد عودته الصبر مهنته ودربته
ثروة التهمين أن يكون أكثر صبراً من أيوب .
وها هو ذا قد أعد نفسه للموقف الخطير !

— فى عام ١٨٧٠ ، أيام الحرب السابقة لهذه
الحرب الضروس القائمة الآن ، كنت فى العشرين
من عمري ، وكان زوجى العزيز جندياً من جنود
الحرس الوطنى فى الوقت الذى حوصرت فيه
باريس . وحدث أن جرح هذا المسكين فى أثناء
موقعة من المواقف التى قامت بين الفرنسيين وأعدائهم
الألمان فبذلت ما تستطيع امرأة أن تبذل فى سبيل
إنقاذ حياته ، ولكنى اضطررت بمد ذلك أن أعمل
وأن أعمل بكل ما أوتيت من قوة كي أعيش وكى
يمش معى زوج عاجز عن العمل وابنة لم يهبنا الله
غيرها . ومات زوجى كما مات ابنتى — وأسى —

رفع رئيس الشرطة نظريه متأملاً المرأة المسنة
ذات الشعر الذى وشعه الشيب فأصبح ذا لون
رمادى عجيب . كانت واقفة فى تحاذل أمام مكتبه منذ
هنية ، ولكن سرعان ما اتخذت لنفسها مجلساً على
مقعد قريب منه غير مأمورة ولا منتظرة إذناً أو إشارة
وعاد الرئيس فألقى عليها نظرة فاحصة أخرى
ثم أخذ يفحص ورقة موضوعه أمامه ، هى تقرير
الانهام المقدم إليه من رجل الشرطة الواقف إلى جانبه
وقفة عسكرية نظامية وما لبث أن صاح موجهاً
حديثه إلى العجوز :

إحداث شغب فى دار من دور السينما . التفوه
بألفاظ ممينة فى حق السلطات الحاكمة . التمرد
بالسب والاهانة باللفظ والاشارة على أحد رجال
الحفظ . تلك هى التهم الموجهة إليك فما هو دفاعك؟
أما هى فكانت فى تلك اللحظة تجيل الطرف
بين مكان الرئيس ومكان مرءوسه وقد بدت عليها
علامات الدهول حتى كأنها لا ترى شيئاً أمامها

وانتهى الرئيس من توجيه التهم إليها فتلصت
عضلات وجهها وبانت فيه علام الدش والاستغراب
ثم أغمضت جفניה ثم عادت تفتحهما كأنها تستيقظ
فجأة على أثر حلم عجيب وممست قاتلة :

والواقع أننى كنت أحب مهنتى . وعلى قدر
لحافك مد رجلك . وإن كان هذا مبلغ فقرى
وحاجتى أصرح بأنى لا أميل ولا أطمئن إلى تلك
الحياة التى يحياها هؤلاء الفنانون . أأست ترانى
على حق يا سيدى ؟

وهنا أمسك الضابط عن الصغير واتجه إلى
المرأة وجعل يتفرد وجهها مهتما . لعله كان يعرف
الحفيدة، تلك الراقصة النابضة الذكر . ولعل هذا هو
سر ذلك التطور فى موقفه

واستطردت المجوز قائلة :

— أما معبودى ؛ أما أحب الناس إلى وأقربهم
إلى قلبى وعاطفتى فقد كان حفيدى ألبير . كان
فى ذلك الوقت الذى أحدثك عنه عاملاً فى أحد
المصانع الكبرى . كان عاملاً من أنشط العمال
وأمرهم وكان يعيل إلى الدرس ومطالمة الكتب .
وكثيراً ما كنت أزوره على الرغم من كرهى الاختلاط
بالناس وإيثارى العزلة والانفراد بمبدأ عن العالم .
وكنيت كلما زرتة جعلت هى الأول مساعدة زوجته
فى أعمالها المنزلية وملاعببة طفله الوحيد الذى هو
حفيد ابنتى ياسيدى ! تصور مقدار ما فى ذلك من
سعادة وهناء ! ليس كل إنسان يستطيع أن يحظى
بنعمة الحياة حتى يرى بمبنى رأسه أولاداً أحفاده

وصمنت لحظة قصيرة ، سبحت فى أثنائها فى

عالم من الذكريات السعيدة ثم تمنت قائلة :

— ما كان أسعد تلك الأيام ياسيدى ! تلك
الأيام التى سبقت الحرب . قصدنا فى يوم من أيام
الأحد إلى خارج المدينة ، وسط الريف الجليل كى
نحتفل بتعيين ألبير رئيساً لعمال مصنعه؛ وجلسنا هناك

بعد قليل تاركه لى من بعدها حفيدين

وتوقفت المجوز لحظة عن الحديث حتى ترى
أثر حديثها فى الرجلين . غير أنها لم تستطع أن
تقطع فى الأمر بحكم أو قرار . فقد كان رئيس النقطة
يصغر صغيراً خافتاً وهو يقلب الفتاحة بين أصابعه
فى عصبية ومهل بينما عيناه تتطلمان إلى سقف
الحجرة . وأما الشرطى الذى جاء بها إلى هذا المكان
فقد كان واقفاً فى مكانه إلى جانب رئيسه تلك الوقفة
النظامية كأحسن ما يقف الجندى النظامى الذى
لا يختلف فى سلوكه وجوده من تمثال صخرى

هل تسكت عن الكلام ؟ هل تحتج ؟ كلا
إنها لا تستطيع . . . ما من الحديث مفر ، وإذن
فلتتحدث ولتتحدث غير آبهة بموقف المستمعين منها
— أما حفيدتى جوليت فهي راقصة من راقصات
السارح ، وهى شخصية معروفة جداً ، ولا أحسب
إلا أن سيدى الضابط قد رأى صورتها منشورة
فى إحدى الصحف أو ملصقة على جدار من جدران
المدينة . نعم إننى لا أراها ولا ألتقى بها كثيراً إلا
فى فترات متباعدة جداً ، ولكنى أحبها الحب كله .
وقد حدث مرة بينما كنت أدفع عربة خضرى
وأسير بها فى أحد الشوارع أن كادت سيارتها
الفخمة تصدمنى وثرونى مئى ، ولكنى سكت راضية
بينما صاحت بى هى :

— إنها غلطتك يا جدتى . لماذا تصرين على

احتراف مهنة البيع والشراء ؟

وماذا أفعل إذن يا بنيتى ؟ لقد كان حتماً على أن
أتمن هذه المهنة عندما كانت هى وشقيقها طفلين
صغيرين لأقوم بواجب الانفاق عليهما وسد حاجتهما .

على شاطئ السين حيث تناولنا الطعام والدمام ،
هينئاً مربئاً ...

وبعد أسبوعين اثنين حدث ما كنا نمخشي ،
إذ أعلنت الحرب ...

وفي هذه اللحظة أبدى الرئيس حركة من
حركات الضيق نسبتهما المرأة إلى كرهه الاستماع إلى
شيء يمت إلى الحرب بصلة فقالت :

— نعم ياسيدى ، بيدك الحق ؛ فأنا أعلم أنه
قد صرت علينا أربع سنوات عجاف من جراء هذه
الحرب ، وأن سيرة تلك النكبة تذهب بحلم أشد
الناس رزاة وثباتاً . وقد أخبرونى أن المسارح
والجرائد السيارة ملت هى الأخرى تريد سيرة تلك
الحرب ووقائعها الدامية . أعرف هذا حق المعرفة
كما أعرف أن حكايتى تشبه حكايات الكثيرين
والكثيرات غيرى

انضم البير إلى إحدى الفرق المحاربة إثر
إعلان الحرب فلم أراه إلا بعد مضى عام عند ما عاد
من الميدان مرتدياً حلته العسكرية ، ثم عاد مرة
ثانية ، وأخيراً اعتدت احتمال أمر غيابه عن المنزل .
وكان لا يخاطر ببالي قط أن ألبير كغيره من الناس
يستطيع الموت أن يمدو عليه

غير أنه حدث فى ذات يوم أن تسلمت ورقة
صغيرة لم أستطع بعد أن تلوت ما حوت من كلمات
إلا أن أصرخ بأكية مولولة كما صاحت مى زوجته
وبعد أيام قليلة أقبل واحد من زملائه فى الفرقة
حاملاً معه بعض متاع حفيدى العزيز ...

وهنا أجهشت المجوز بالبكاء وخفت صوتها
خفوتاً ظاهراً وهى تقول :

— لم أراه بعد ذلك ياسيدى ، فقد قتلوه !

وكأنها عادت فذكرت وعدّها بأن تختصر
الكلام إذا ما تحدثت عن الحرب فبذلت جهد
الجبارة فى التغلب على عاطفتها وتركّت الكلام عن
الحرب فعلاً :

— وتعمل أرملة ألبير الآن فى أحد مصانع
المواد المفرقة الواقعة فى الناحية الأخرى من باريس .
ولست أرى ابن حفيدى إلا صرات قليلة متباعدة
إذ على كل إنسان أن يهتم لأمر معيشته

ولماذا أخجل من ذكر الحقيقة ؟ إننى مذمات
البير وأنا أكثر من التردد على إحدى الحانات .
وكلّ يحاول إغراق همومه والتغلب عليها بالطريقة
التي يعرفها . لقد تجاوزت السبعين ، وفى هذه السن
وخاصة إذا كان الإنسان مثلى مضطراً إلى الاستيقاظ
مع الفجر وإلى الذهاب إلى الأسواق الرئيسية لشراء
بضاعته التي يبيع منها ، أرى أن كوبة صغيرة من
النبيد هي خير دواء . أليس كذلك ياسيدى ؟

صمت الضابط ولم يجب على سؤالها الأخير ،
وكان معنى هذا بطبيعة الحال أنه رآه سؤالاً
غير لائق

ولكنها استمرت فى الحديث وبدأ فى أسلوبها
وفى طريقة إلقائها شيئاً من الحدة والحرارة مما دل
على أنها كانت تقترب من النقطة الحساسة فى
موضوعها .

— وفى هذه الليلة بالذات ، بعد الغروب بقليل
ذهبت إلى الحانة صحبة العم كرانكفيل . وقد اعتدت
أن ألتقى بهذا الرجل هناك فى كل مساء ، وتركنا
المكان ممّا حوالى الساعة التاسعة ، ولست أدري
لم وقفت أمام باب إحدى دور الصور المتحركة ؟ ولماذا
رغبت فى الدخول ؟ لغتت نظرى صورة مكبرة تمثل

ليس من شأنه ولكنه أراد تمثيل دور البطل الذي يجيء لا نفاذ الفتاة النبيلة في اللحظة الأخيرة ، فالتفت عليه هو الآخر درساً لا أظنه ينسأه ...

وفي داخل الدار لازمني سوء الحظ أيضاً وقاد خطواتي الشيطان فبدأ جيرانى يتدمرون ويتمموننى بأننى كنت أدوس أقدامهم ، حتى أن بعضهم لقبنى بلقب غريب هو « الحيزبون الغظة » والحقيقة يا سيدى أننى لم أدس أقدامهم وإنما هى نواياهم السيئة التى أوحى إليهم بهذا الادعاء؛ وأنا شخصياً لا أبغض شيئاً فى الحياة قدر بغضى لمضايقة الآخرين .

وقد تبرعت امرأة سميكة كانت تجلس إلى جانبي بتشبيهي برميل الخمر من حيث الرائحة ...

برميل الخمر يا سيدى؟ هذا كثير. هذا لا يحتمل. عند ذلك اضطررت أنا الأخرى إلى إسماعها رأيي الخاص فيها ؛ فضج الجمهور واحتج ، ولكن احتجاجهم لم يكن منصباً إلا على وحدى دون غريمى بدعوى أننى أفسد المرض وأننى أشغلهم عن الشاهدة ، ولكن ذلك لم يسكننى قط . وإن كنت قد سكنت أخيراً فإنما كان ذلك لأن قصة الفتاة الأتراسية كانت قد بدأت ...

هى قصة مسلية جداً يا سيدى ، كنت أحب أن أقصها على مسامحك ، لولا مخافة الاطالة والاملال ... وعلى كل حال لا داعى لذلك فلست أعرف كيف انتهت ولا كيف كانت خاتمتها . لم يتركونى أستكمل المشاهدة يا سيدى

وعاد الضابط مرة ثانية إلى التأمل فى سقف الحجرة وإلى الصغير محاولاً الترفيه عن نفسه — وكان هناك سيد يجلس خلفي تبدو عليه

فتاة الأتراسية جميلة ، أمسك بها جندي ألماني ضخيم الجثة كأنه الحيوان المفترس بينما أخذت المسكينة تبذل أقصى مجهود بدني للدفاع عن نفسها والخلاص من قبضته . وأنا أحب القصص التي من هذا النوع؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنى من أشد الناس تحمساً للوطن . ومرجع ذلك إلى أنى شهدت حربين مختلفتين ؛ ولكن دعنا من هذا ولنترك الحديث عن الحرب ...

ورفض ألم كرا تكفيل أن يصحبني فى الدخول إلى الدار مع أنى عرضت عليه عن تذكرته . والواقع أننى لا أعرف أى الأشياء يحب هذا الرجل وأى شئ يكره ؛ فقد تعود أن يقابل كل ما يلقى بابتسامة واحدة لا تتغير ولا تبدل

وإذن فقد دخلت الدار وحدى وكان هذا لسوء حظي . ألم يلاحظ سيدى ظاهرة عجبية فى حياة الانسان ؟ ألم يلفت نظره مرة كيف تعادي الظروف أحد الناس باستمرار ؟ وكيف أنه كلما حاول مقصداً انقلب إلى نقيضه ، وكلما جهد فى سبيل جلب السرور إلى قلوب الناس آذاهم وأذى شعورهم وعواطفهم حتى كأنما الشيطان بنفسه يقوده ويوجه خطاه وحركاته ؟ ولم يتنازل الضابط بالإجابة على هذا التساؤل أيضاً

— تشاجرت مع بائعة التذاكر من أجل قطعة من قطع العملة أدعت هى أنها مزيفة ولم تقبلها بحال من الأحوال ، وأصررت أنا على أنها عملة جيدة لا عيب فيها ؛ ولكنها لم تستمع لكلامى فأغضبني هذا غضباً شديداً وقلت لها إنها لا تعرف التميز بين أنفها وبين ...

وعندئذ تدخل حارس الباب بيننا ، مع أن هذا

دلائل المعرفة والملم بما يتعلق بالصور المتحركة. سمعت هذا السيد يبدى رأيه في الفلم المروض لبعض جيرانه في صوت خفيض . وعلى حين غرة تتقدم الفتاة اللازاسية إلى مقدمة الستار محاولة الفرار من مطاردها . ثم يبدأون بعد ذلك مباشرة في عرض مناظر الخنادق المزدهجة بالجند ومطابخ المسكرات والمدافع

قال السيد العالم بشئون الصور المتحركة الجالس خافى : إن هذه المناظر في الواقع قطعة من التاريخ، وإنها ... ماذا أقول ؟ هي مقتطفات واقعية أضيفت إلى صور الفلم . هل استطعت التعبير ياسيدى ؟ هذه الاضافات أشبه شيء بقطع من القماش الجديدة التي ترفع بها الأثواب البالية لتبدو أحسن منظرآ . ولكنى لا أعرف شيئاً ألبته عن الصور المتحركة ، وغاية ما كنت أشعر به هو أن ما أرى ظريف طريف ، بل بالغ الغاية من الطرف والطرافة وبعد ذلك ظهر على الستار منظر يمثل خندقاً من الداخل ، ورأينا جنداً كثيرين في وقت راحتهم، وكان أحدهم آخذاً في تحرير خطاب وهو مسند الورقة على إحدى ركبتيه بينما كان ظهره متجهاً نحو النظارة ، ثم أخذ في تحريك رأسه قليلاً قليلاً حتى ظهر وجهه ثم ابتسم للمتفرجين

حينئذ فتحت عيني جيداً وجملت أدق النظر . إننى لست عمياء ... ولا شك أننى أستطيع تمييز ما أمامى من مرئيات ... كدت أصبح بكل ما فى حنجرتى من قوة ... إنه حفيدى

ونهضت من مكانى واقفة كي أتمكن من رؤيته جيداً . وحاولت أن أسرع إليه مهرولة فأحتضنه وأشبعه ضماً وتقبيلاً . وقد يكون حدث فى أثناء

ذلك أننى دهست بمض أقدام الناس فى خشونه ، أو دفعتهم أمامى فى شدة، ولكن عذرى فى ذلك أننى لم أكن قط فى كامل شعورى . وهاج المتفرجون وماجوا ، وتدخل عمال الدار فى الأمر فاعترضوا طريق نحو حفيدى وأحاطوا بى إحاطة السوار بالمعصم، ولم يقبل أحد أن يستمع إلى كلامى؛ إذ كان الجميع يمتقدون اعتقاداً جازماً أن ما حدث إنما كان من فعل الخمر فى رأسى ، وبدأوا فى دفعى نحو باب الخروج فى قسوة وشدة حتى اضطرت إلى استعمال قبضة يدى فى الدفاع عن نفسى . وجاء الشرطى الواقف الآن إلى جانب سيدى ، والذى يقولون إننى سببته وأهنته وعضضته فى إحدى يديه مما لا أدري كيف أمكن أن يصدر عنى . ينحيل إلى أننى كنت فى حال هى إلى الجنون أقرب منها إلى العقل . وجذبنى الشرطى إلى الخارج وجاء بى إلى هذا المكان دون أن يسمح لى بالكلام أو شرح الموقف ، وبذلك لم يتح لى فرصة البقاء لمشاهدة ألبير وتلا ذلك فترة سكون طويلة كانت المعجوز فى أثناءها تسكب الدمع من عينيها مدراراً إلى أن قالت:

— وهكذا التقيت بحفيدى ألبير أخيراً

وانحنى أمام الضابط انحناء الخضوع والامثال وقالت :

— استمع السيد عذراً وعفواً

ثم انحنى مرة أخرى أمام الشرطى الذى ساقها إلى ذلك المكان وقالت :

— كما أطلب عفوى سيدى

ثم وقفت واقفة الدل مطأطئة الرأس مشبوبة اليدين على الصدر، مرخية المينين نحو الأرض وظلت صامته وهى تشعر فى قرارة نفسها أن دفاعها عن

نفسها لا بد بالغ إلى قلب الضابط بينما كانت الدموع تهمر من عينيها فتبسط جارية على وجنتيها المجعدتين

ومكث الضابط في صمته لحظة ثم نظر إلى الشرطى الواقف إلى جانبه وهو رجل ضخم الجثة يحمل على صدره صليب الحرب وقد تحلت ذراعه بشرائط تدل على طول المدة التي قضاها في الخدمة، فبادل الشرطى النظر وقد كان يستمع إلى حديث المرأة في حياد تام طول هذه المدة ولم يبد منه ما يدل على التأثر كما لم تبد منه حركة الإقيامه بفنل شعرات شاربه سرات . وكأنما كانت هاتان النظرتان كافيتين لتنام التفاهم بين الرجلين ، إذ أمسك الضابط بعد ذلك بالتقرير الذى قدمه الشرطى إليه فناوله إياه فلم يكذب يتناوله حتى أخذ يمزقه دون أن ينبس ببنت شفة

وقال الضابط :

— فى استطاعتك الانصراف ياسيدى المحترمة وكأنما استيفظت المرأة من حلم آخر . أحقيقة أنهم يخلون سبيلها ؟ أستطيع الآن أن تذهب حيثما تشاء ؟ ما أشد رحمتهم ! ... ولكنها قبل أن تهم بالخروج اتجهت نحو الضابط وقالت :

— وهل أستطيع أن أعود إلى دار السينما ؟ هل يسمحون لى برؤية حفيدى مرة واحدة فى كل ليلة ؟

فلم يسع الرجلين إلا أن يضحكا من سذاجتها ، وإلا أن يقولوا لها إنها تستطيع أن تفعل ذلك كلما أرادت

وخرجت أخيراً من مراكز الشرطة دون

أذى ، ولكنها كانت تشمر بالحجل ولا تميل إلى رؤية أحد من معارفها فى ذلك الوقت حتى لا يلتبس عليه الأمر ويظن بها الظنون . وعند ما وصلت إلى الشارع العام تلفتت يمنة ويسرة وأمامها وخلفها ، فلما لم تر أحداً جمعت أطراف ثوبها فى كلتا يديها وأسرعت المدو بقوة الشباب بينما أخذت عضلات وجهها فى التمدد والتقلص تبعاً لتردد أنفاسها وقد خرجت بعض خصلات من شعرها الأبيض من تحت القناع المزركش الذى يغطى رأسها . وصلت إلى دار السينما فرأت الجموع الأخيرة من المتفرجين يخرجون والعمال يقومون باطفاء الأنوار ورفع الصور الموضوعة فى الخارج فوقفت على مقربة من الباب ترقب حركاتهم وهى ساكنة لا تتحرك ، مستندة بذراعها على الحائط وأسندت رأسها بيدها الأخرى وأخذت تبكى بشعور المرأة التى فقدت طفلاً عزيزاً وتمتت أخيراً محدثة نفسها :

— يا إلهى ! ... أملى الآن أن أنتظر حتى الغد؛ أنتظر حتى الند لأرى صغيرى المحبوب ...

وفى الليلة التالية دخلت المرأة دار السينما أدب جم . وعند ما اقتربت من نافذة بيع التذاكر أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى حتى تتحاشى رؤية العاملة لها إياها ولكن حارس الباب رآها واستطاع أن يميزها فاقترب منها وقال :

— لا . لا . هل أتيت الليلة لتكررى فضيحة الأمس ؟ لا تذكرة لك ياسيدة

ثم حاول إخراجها ... ولكنها نظرت إليه ضارعة وقالت :

تلك اللحظة ما حدث لها بالأمس فارتعدت فرقا .
إنها لو صاحت الآن أو تكلمت لرى بها الناس إلى
الخارج مرة ثانية ولحرموها نهائيا من ارتياد الدار
وبذلك يتم حرمانها إلى الأبد من رؤية جنديها الباسل
دفعها الخوف إلى الورااء وأسكن حركاتها ولخص
عواطفها المتباينة ووجداناتها الشتى فى بضع قطرات
من الدموع سالت على خديها ، ولكى ترفه عن
نفسها بعض الشيء أخذت تتغم فى صوت
خافت إلا أنه عميق لأنه خارج من صميم قلبها ،
وكانت عينها ترقيبان القصة من فوق الستار
— أليير يا صغيرى ... هانا أمامك ... ألا
تعرفنى ؟ سأحضر لمشاهدتك كل مساء ... فى كل
مساء يا أليير

وفى الليلة التالية قل بكأوها عن ذي قبل فقد
بدأت تعتاد مشاهدة هذه القصة
وعند دخولها الدار تحدثت إلى حارس الباب
كما لو كان صديقا قديما . قالت وهى تحاوره :
— أشهدت كيف أجاد حفيدى اللعب ؟
فلم يسمع الرجل الذى لم يكن يعير حديثها كثيرا
من الاهتمام إلا أن تبادل نظرة مع عاملة « شباك
التذاكر » وكأنه كان يسألها عن رأيها فى مبلغ حق
هذه المجوز

وعادت المجوز إلى مسكنها ولكنها لم تستطع
النوم إلا بعد جهد جهيد ... كان ضميرها يعذبها
ويؤنبها ... إنها أنانية ... نعم أنانية محبة لذاتها .
ألم تستأثر بكل هذه اللذة التى اكتشفت مصدرها
لنفسها بينما كان لأليير فى عالم الأحياء أناس آخرون

— دعنى أدخل يا سيدى الفاضل ... لقد
أتيت لأرى حفيدى وأعدك وعدا صادقا أننى لن
أتعبكم الليلة . فكان لحديثها الساذج هذا أثره
فى الرجل جرده من كل سلاح ، فضحك كما ضحك
عاملة التذاكر وسمح لها بالدخول ، فأنحنت أمامهما
شاكرة كما أنحنت أمام الشرطى الواقف أمام الباب
وعند ما صارت داخل المكان أبدت من
الأدب الجلم ما لفت لها الأنظار ... صارت تحيى
كل من تلتقى به وتنحني أمام الذين تعرفهم ومن
لا معرفة لها بهم حتى تضايق الجميع وصاروا ينظرون
إليها شزرا وكأن نظراتهم تنطق بمعنى واحد هو
الاشمئزاز

وانكشفت فى مجلسها محاولة شغل أقل فراغ
ممكنا حتى لا تضايق جيرانها ، ثم جمعت تنظر
حواليها نظرات مختلصة ترى تأثير ذلك السلوك فى
المتفرجين هل حاز قبولهم أم لم يحزه ؟

— وبدأ العرض فنسيت العالم بأجمعه وبكل
حقائقه ؛ وظهر الجندى الألمانى وبدأ فى مطاردته
للفتاة الأتراسية وأخذ موضوع القصة يتعمق ؛
وسرعان ما ظهرت الخنادق وظهر الجندى
بظهره المتجه نحو النظارة وهو منهمك فى كتابة
خطاب وقد استند على إحدى ركبتيه ثم أتجه بوجهه
ناحية النظارة ، فلم تملك المسكينة أن همست :

— أليير ... أليير

كان عليها أن تبذل جهدا هائلا لى
تتمكن من كبت عاطفتها . فتعجرت تلك
الصرخة فى حنجرتها ، وكادت تصل إلى حالة من
اليأس من التغلب على شعورها لولا أن ذكرت فى

كان وجه الأرملة شديد الشحوب ، وكانت عيناها أكثر اتساعاً مما عهدتهما المرأة ، قد أحاط بهما ونحيط هالتان سوداوان . وما كادت تسمع خبر ظهور زوجها ألبير في دار الصور المتحركة بعد مقتله حتى استخرطت في البكاء وقالت في صوت مختنق :

— كيف يمكن هذا يا جدتي ؟

وتكلمت المجوز محاولة الشرح والايضاح ، ولكن الأرملة حاولت عبثاً أن تفهم ما تقول : وأخذت المجوز تردد كلمات الرجل الذي جلس خلفها في دار السينما وتكرر شرحه الذي لم تكن هي نفسها تفهم منه حرفاً واحداً ، وأخيراً ختمت حديثها قائلة :

— دعينا من هذا كله ... الواقع أن البير يظهر الآن على ستار السينما؟ فما عليك إلا أن تحضري أنت ووليك لرؤيته؟ وسوف أنتظر كما هذا المساء

قالت هذا القول في لهجة يخيل لسامها أنها صادرة من فم ملكة من الملكات تدعو بعض أتباعها ورعاياها للمثول بين يديها في القصر الملكي !

— وسوف تجدداني في انتظار كما عند باب الدار الواقعة في الناحية الأخرى من باريس

وافترقا بعد ذلك الحديث القصير على أن يلتقيا في المساء .

وفي الموعد المحدد وصلت الأرملة وولدها فكان لذلك وقع حسن على المجوز طربت له كل الطرب ؛ وكانت الأرملة ترتدي في ذلك الوقت ثوباً أسود جديداً كما ارتدى الطفل أحدث أثوابه وعند ما حاولت الأرملة أن تبتاع تذكار الدخول

غيرها بهمهم أمره ويسعدهم أن يروه بعد أن فقدوا الأمل في رؤيته مرة أخرى ...

وما كادت شمس اليوم التالي تبرز حتى أسرع المجوز إلى السوق فباعت خضرها دون أن تهتم كثيراً بمبلغ ما تصيب من ربح ، ووضعت العربة في مكانها في وقت مبكر بالنسبة للوقت الذي اعتادت وضعها فيه في الأيام العادية ، ثم سارت ميممة ضواحي باريس إلى أن انتهت إلى المكان الذي تقصد . وهو مكان يكاد يكون مظلماً لكثرة ما حوى من مصانع ضخمة ذات مداخن هائلة وأبنية كأنها السجون هي التي بأوى إليها عمال تلك المصانع هم وأسرهم

واقتربت من أحداً لمساكن سائلة عن زوج حفيدها وابنها ، فأخبرت بأن الطفل بالمدرسة وأن أمه تعمل في المصنع ، فقصدت توالاً إلى ذلك المصنع ، غير أنها ما كادت تصل إلى هناك حتى منعها الحارس — وهو جندي سابق — من الدخول قائلاً إنه ممن المستحيل عليها أن تدخل ، لأنهم يقومون الآن بصناعة الآلات الحربية وأطلت المجوز برأسها لترى ما ذا في داخل المصنع قبل أن تترك الحارس فوقع نظرها على جملة نساء منهمكات في العمل وهن رأىحات غاديات وقد ارتدين ملابس طويلة من لون واحدات سراويل ضيقة قد التصقت بسوقهن وأخذهن فجملتهن أشبه بالنسابقين من راكبي الدراجات !

ودوى في المكان صوت جرس ضخم مؤذناً بحلول وقت الغداء لهاملات المصنع وعماله فخرجوا جميعاً واستطاعت المجوز أخيراً أن تلتقي بأرملة حفيدها وأن تتحدث إليها

السن التي نسمع فيها عن الموت دون أن نعرف
كنهه أو حقيقته

ولقد استطاع أن يعرف الجندى الذي ظهر
على الستار متجهاً بوجهه المبسم نحو النظارة ...
نعم لقد عرفه فقد رآه أخيراً في منزله في نفس
الرداء الذي يرتديه الآن ، ولكنه لم يعد مرة أخرى إلى
المنزل فلماذا لم يعد ؟

وقف في مكانه ثم مد ذراعيه الصغيرتين نحو
الصور المتحركة أمامه وتمتم في صوت منخفض قائلاً

— بابا ... بابا ...

ولكن أمه وجدته سرعان ما أجلساه في مكانه
وأمرته بالصمت وقلباها يكادان يتفطران من
الغم والأسى

وعند ما خرجوا من الدار قالت المعجوز :

— غداً نلتقي في هذا المكان مرة أخرى

— ولكنني أقيم في أقصى حدود باريس يا جدتي
ومن واجبي أن أستهيظ مبكرة للذهاب إلى المصنع
ولكني أعد الطفل للذهاب للمدرسة . إن الحضور
مرة أخرى إلى هذا المكان بكفني ما لا طاقة لي
به ... ثم ما فائدة الحضور مرة ثانية ؟ لن يعود
ألبير إلى الحياة ... وهذه الصور تقتلني قتلاً بطيئاً
فرمقتها المعجوز شزراً ... لقد طالما شكت في
أن هذه المرأة الصغيرة لا قلب لها ... وها هو
ظنها يتحقق

— أجل ... بيدك الحق يا بنية . إن الانسان
الوحيد الذي يذكر ألبير هو جدته المعجوز البائسة

وفي اليوم التالي كان الحزن مستولياً على المعجوز

اعترضت المعجوز واحتجبت في قوة وحزم قائلة
— ماذا تمنين بتصرفك هذا ؟ سأدفع أنا من

التذاكر ، إن أصحاب الدار يعرفونني حق المعرفة
وبعاملوني كفرد من أفراد أسرته

ولكني تبرهن على صدق قولها تبادلته بعض
كلمات المزاح مع عاملة التذاكر ثم صاغت حارس
الباب — عدوها القديم — وقدمت إليه سيجاراً
رخيصاً اشترته منذ دقائق لهذا الغرض وهي
تقول :

— الهدايا الصغيرة تحكم أواصر الصداقة .

أرجو يا صديقي العزيز قبول هذه الهدية التافهة
وفي داخل الدار حيث أحد العمال تحية الصديق
لصديقه الحميم ، ثم قالت وهي تنفجحه ببعض القطع
النحاسية :

— هذه هي زوج حفيدي الذي يعمل عنكم

في الروايات وهذا هو طفله

وأخذ الجميع مجلسهم في المقاعد التي أرشدتهم
إليها العامل ، وبدأ عرض القصة على المتفرجين ؛
وبدأت سلسلة مخاوفها وأوهامها . كانت تخشى وقوع
حادث يصدر عن الأرملة الجالسة إلى جانبها إذا
ما ظهر ألبير على الستار . غير أن الأرملة كانت في
الواقع من الذين يحتملون آلامهم في صمت وفي
شجاعة . جلست ترقب المناظر التي تتوالى أمامها
بمئين ذاهلتين ثبتت حدتهما فصارتا أشبه بميني
مدمنى المورفين ، وجملت تضغط شفيتها بأسنانها
محاولة كبت مواطنها النائرة وقد جرت مدا معها على
وجنتها في اطراد

أما الطفل فكان يشاهد الرواية في برادة تلك

الآن ، ولقد علمته الحياة ألا يهتم بشيء في الوجود
وأن ينظر إلى الخطير من الأمور نظرتة إلى التافه منها

ضغطت المعجوز الذر الكهربائي ووقفت
خلف الباب الضخم ترتب ثوبها الحريري الأسود
متأملة إياه لتستوثق للمرة الأخيرة من ملائحته لها
ثم تمتعت قائلة :

— لا بأس . إنه بلائعنى تماماً كما لو كان قد
صنع لي خصيصاً لا لا بنتي ، ثم إن القماش الجيد
سرعان ما ينبي عن نفسه

وكان رأسها عارياً ولكنها لم تكن ترى في ذلك
من ضرر لأنها كانت دائماً المفاخرة بشعرها الأبيض
الناعم ...

ومرت لحظة قصيرة أعقبها صوت خطى مقبلة
نحو الباب . فلما فتحت ظهرت خلفه فتاة في مقبل
الشباب ما كادت المعجوز تراها حتى شممت
بالاشتزاز من حركاتها الصبيانية الطائشة ومن
تلك النظرات الحادة التي كانت تلقها عليها من
أخص القدم إلى شعر الرأس

— أيتها المعجوز الطيبة القلب ! إن كنت قد
أتيت تستجدين أو تطلبين المساعدة من سيدة المنزل
فاني آسفة أن أقول لك إن السيدة ليست هنا وأن
عليك أن تكلفي نفسك عناء زيارتنا في يوم آخر

لاشك أن هذا الحديث أثار المعجوز وأغضبها
فجمعت رمق الفتاة بنظرات حادة كما بدأت تتمم
مرردة بعض الشتائم الشديدة، ولكنها توقفت عن
ذلك عند ما شممت بيد تمسك إحدي كفيها والتفتت
إلى وراء لترى الشخص الذي اجتراً على الإمساك
بها فوق نظرها على سيارة فخمة قد وقفت عند

استيلاء تاماً ، فما كاد الليل يسدل ستاره على الكون
حتى أخذت تطوف في الطرقات باحثة عن المم
كرانفيل الذي اشتهر بين معارفه ولدانه باسم
« فيلسوف السوق » وبأنه لا يهتم بشئون الآخرين
فقد كانت تعلم أن الرجل على الرغم من اشتهاره
بهذه الصفة يعطف عليها ويهتم بأمرها ...

وفي الحانة المهددة جلس الاثنان وأخذت
المعجوز تروي قصتها الاخيرة وأفهمته أنها قد
تغيرت تغيراً كلياً بعد ذلك الحادث الغد الذي
جد في حياتها ، حتى صارت امرأة أخرى غير التي
كان يعرفها من قبل ، فهي تبسط يدها كل البسط
وتأقي بالنقود هنا وهناك بنير حساب . وهي تذهب
إلى السوق متأخرة فتشتري بضاعتها بأغلى الأثمان
لتبيها بعد ذلك بأبخسها غير حاسبة حساباً للخسارة
التي تلحق بها ، قال الفيلسوف :

— إنك تحطمين نفسك بنفسك . إنك
تنتحرين . إن تصرفك هذا معناه ضياع رأس مالك
قال هذا القول ولكنه لم يمتنع عن قبول
أكواب الخمر التي كانت المعجوز تطلبها له

وظلت المعجوز جالسة إلى جانب المم كرانفيل
إلى الساعة الثامنة مساء ثم نهضت فجأة وقالت :
— إلى اللقاء يا كرانفيل فاني ذاهبة الآن
لأخذ حفيدتي معي كي تشاهد أخاها وهو يمثل
في السينما

— ولكن حفيدك قتل
— أعرف أنه قتل ... ولكنه مع ذلك يمثل
في السينما

فهز الرجل كتفيه استخفافاً ولم يتكلم إذ كان
يمتد أن الكلام في هذا الموضوع لا فائدة منه

مفتريات... ترهات... إنها أطيب فتيات العالم قلباً وأطهرهن سريرة... غير أن هذا الحماس الزائد في الدفاع عن جوليت سرعان ما اعتراه بمض الفتور عندما لاحظت المعجوز برود الراقصة وفطورها لدى سماعها قصة الاكتشاف العظيم الذي اكتشفته في دار الصور المتحركة

كان جوابها على خبر هذه المفاجأة الرائعة أن قالت — عجيب... هذا عجيب في الواقع !

ثم تنبأت على أثر ذلك بما تريده المعجوز منها فقالت: وأنت الآن قد أثبتت يا جدتي تريدين أن أحبك لرؤيته أليس كذلك؟ حسن! سأذهب معك الليلة، ولكن على شرط أن تبقي معي هنا لتتناول طعام العشاء معاً... ولعل سيرة ألبير قد ذكرت الفتاة الراقصة بأمور أخرى فقد استأنفت الحديث قائلة: — نعم يا جدتي لم يكن ألبير هو الوحيد الذي ذهب للحرب. هناك آخرون لا يزالون على قيد الحياة، وأمر هؤلاء يبعث على القلق ويشير روح السكر لهذه الحرب أكثر من أمر الذين استشهدوا وانتهى أمرهم

وكانت الراقصة تفكر في هذه اللحظة في صديقتها أوعشيةما وهو شاب غني جميل لم تره معجوز الأسواق ولم تعرفه، وكانت الأشاعات ترشحه للزواج من جوليت وأزف موعد تناول الشاي فلم تستطع أن تتحدثا بأكثر من ذلك إذ بدأ صديقات جوليت وزميلاتها يفدن على المنزل زرافات ووحداً وكلمن قد ارتدين أغر الثياب وأثمنها قيمة وأكثرها أناقة؛ وأمام ألوانها الباهرة ودقة صناعتها بهرت المعجوز بل أخذت عقيدتها في حفيدتها وسلوكها تترعرع

الباب الخارجي للمنزل وهذه التي أمسكت بها هي السيدة الأنيقة صاحبة السيارة والتي هبطت منها لتضم المعجوز إليها وهي تقول: — جدتي... جدتي...

وكانت أولى الملاحظات التي لاحظتها المعجوز أن حفيدتها الراقصة الكبيرة كانت تلبس ثوب الحداد... نعم إنه ثوب فاخر غالي الثمن، ولكنه ثوب الحداد على كل حال... ولا شك أن الراقصة لم ترد هذا الثوب إلا حداداً على وفاة أخيها ألبير.. وعندما أصبحت المعجوز داخل المنزل صارت تتأمل أمانه وتحفه بعين الاستغراب حتى ألوان الجدران المركبة كانت تستلفت نظرها وتستدعي تأملها.

وما كادت تذكر اسم ألبير بعد ذلك أمام الراقصة حتى تحركت عاطفتها وبدا عليها التأثير الشديد وترقرقت الدموع في عينيها وهي تقول:

— كم كانت خسارتى فادحة بفقدته. نعم إننا لم نكن على صلة عائلية دائمة ولم نكن على اتفاق لأنه لم يستطع أن يفهم كيف أحياء ولكنني كنت أحبه حباً عميقاً مكبوتاً...

وهنا تناولت صورة شمسية كانت موضوعة على منضدة صغيرة قريبة منها وأدنتها من فمها ثم طبعت عليها قبلة حارة... ولم تكن سوى صورة ألبير.. كم أثر هذا الوفاء وهذا الاخلاص في قلب الجدة حتى أنها قالت محدثة نفسها:

ومع هذا يتقولون الأقارب ويزعمون المزاعم الخاطئة عن جوليت من أجل المهنة التي اختارتها لنفسها والأسلوب الذي رسمته لحياتها... أكاذيب...

أى طفلة صغيرة تخشى المجتمعات إذا أرادت الفرار من مجتمع ما ... إلى أن وصلت أخيراً إلى غرفة الطعام ... وهناك استطاعت أن تستجمع شجاعتها المفقودة فهضت من مكانها ملقية عنها الخوف جانباً وسارت في الغرفة التالية حيث التقت بالخدام التي لم تحسن إقاعها فرمقتها شرراً وهي تقول :

— قليلة الأدب !

وشمرت بالارتياح عندما انتقمت من الخدام بهذه الكلمات وسارت في طريقها إلى أن هبطت بضع درجات أدت بها إلى المطبخ. وهناك استطاعت أن تقدر ثروة حفيدتها أكثر من ذي قبل عندما شاهدت الأواني الكثيرة اللامعة التي كانت كل آنية منها تتوهج في ضوء الصباح كاللؤلؤ وهناك رحبت الطاهية بزارتها أجمل ترحيب فوضعت على المائدة زجاجة من النبيذ وكوبين وأخذتا في الاحتساء وكل منهما تسرد أحزانها ومتاعبها في الحياة على الأخرى . وفي أثناء ذلك أخرجت الطاهية صورة شمسية من أحد جيوب ثوبها فقبلتها ثم قدمتها لزارتها وهي تقول :

— صورة ولدى الذى يعمل في الصيد في جبال الألب . فألقت عليها المرأة المعجوز نظرة عابرة ثم أخرجت هي الأخرى صورة من بين ثنایا ثوبها وقدمتها للطاهية وهي تقول :

— حفيدى الذى قتل في الحرب والذى يظهر الآن كل مساء في دار الصور المتحركة

فلم تكذب الطاهية تسمع هذا الكلام حتى تحركت في مقعدها حركة عصبية وقد اتسمت حدقتها عينها إذ أيقنت أن المرأة المعجوز الجالسة أمامها ليست سوى خفية من فحايا الجنون، ولكنها لم تبد

وأبدى الجميع إعجابهم بثوب الحداد الذى ترتديه جوليت حتى أن أحدها من ذهب في إعجابها شوطاً بعيداً إذ قالت مازحة :

— ألا يعد من حسن الحظ أن يموت للانسان أخ أو أخت فيستطيع أن يلبس حداداً عليه ثوباً جميلاً كهذا ؟ إن اللون الأسود لون رائع وهو يبدى محاسن المرأة بشكل أروع مما يبدىها أى لون آخر وبدأن جميعاً يدخن ثم ارتمين بأجسادهن على الأرض متكئات على وسائد بعضها من الحرير الخالص وبعضها من فراء الديبة الثمينة ، ومد البعض منهن أطرافهن كالحيوان البليد غير عابثات بما يمرضن للأنظار من أجزاء في أجسامهن يجب أن تكون مستورة دائماً وقد شبك البعض الآخر أيديهن على ركبهن الرفوعة وأسندن ذقونهن عليها كان الشاي ومعداته موضوعاً في آنية فنية من الفضة على الأرض بين الأجسام البشرية الطرية، وكان الصباح الخافت يرسل شعاعاً خفياً من النور الأزرق البسديع . وقدمت جوليت جدتها إلى الحاضرات في شجاعة قائلة :

— هذه هي جدتى التي تبيع الخضار كل صباح في شارع تربى ... إننى أنخر بأسلافي كما يفخر أى معاصر من نسل الصليبيين بأجداده

وقابل الجميع حديثها هذا بالقهقهة ومرت فترة قصيرة نسي الجميع بعدها أمر المعجوز

أما هي فلم تكن راضية عن هذه الأفعال، ولم تسكن مطمئنة إلى هذه التصرفات ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تخشى الاساءة إلى شموع حفيدتها فكانت تنتقل في حذر من مقعد إلى مقعد كما تفعل

باريس في مهمة خاصة وليس لدي من الوقت سوى أربع وعشرون ساعة ...

ولم يستطع ان يتم حديثه إذ كانت جوليت قد طوقت جيبه وارتعت على جسده وأخذت يتبادلان القبلات

ورأت المجوز هذا المنظر فانسحبت وهمت بالخروج من الغرفة، ولكن جوليت لمحتها فتدخلت من يدي عشيقها وأسرت نحوها وهي تقول :

— ها أنت ترين يا جدي .. ليس لديه من الوقت سوى ليلة واحدة ونهار واحد . لن أستطيع الذهاب معك الليلة .. هذا مستحيل . الأيام آتية يا جدي .. يجب أن نفضل الحى على الميت

ألفت المجوز نفسها وحيدة في شارع حالك الظلمة وكان البرد قارساً والأنوار جميعاً مطفأة تحذيراً للقوم من حملة جوية مقبلة، وكانت تتمتع في أثناء سيرها قائلة :

— الحياة تتطلب الحياة ؛ والأحياء في حاجة إلى الأحياء ؛ ويأويلتنا على من مات من الناس ! ... الكل ينسون الأموات

حتى رواد دار الصور المتحركة أظهر واجهودهم بشكل واضح، ففي تلك الليلة لم يكن المتفرجون سوى عدد يعد على الأصابع ... لقد مل الرواد قصة الفتاة الأتراسية ومطاردها

وجلس المجوز في مقعدها بين المقاعد الفارغة، وكأنها ملك من الملوك أمر بعرض رواية من الروايات لتعته الخاصة . وعند ما ظهر حفيدها على

ما يمبر عن هذا الاعتقاد لا لشيء إلا لأن تلك المجوز هي جدة سيدتها وصاحبة نعمتها

وحان وقت تناول العشاء فدعيت المجوز إليه، ولكنها عند ما وجدت نفسها في قاعة الطعام جالسة أمام مائدة عظيمة إلى جانب حفيدتها وصديقاتها الفنانات شعرت بانقباض شديد وبأنها بعيدة عن الجو الطبيعى الذى ألفته بعداً شديداً

كانت تتناول الطعام بشهية حسنة، ولكنها في الوقت نفسه كانت تتحرق شوقاً لساعة انتهاء الجميع من تلك المهمة . وكانت لا تنفك بين آونة وأخرى تنظر إلى الساعة المعلقة بالحائط كأنها تمنجل سيرها وحوالى الساعة الثامنة أتجهت جوليت نحو

جدها وقالت :

— لا داعى للمجلة يا جدي فما زال لدينا متسع من الوقت

وما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى ارتفع في المنزل صوت ضجيج عال وأجراس كثيرة، ثم سمع من قرب صوت رجال مقبلين، وأقبلت الخادم تلهت وقالت :

— سيدتى ... لقد حضر السيد ... !

ولم ترد على ذلك حرفاً واحداً، ولكن المجوز فهمت الباقي فهضت من مكانها كسيرة النفس محزونة الفؤاد وقد اغبر وجهها وتقلصت عضلاته . وحينئذ أقبل شاب جميل الصورة يرتدي لباس ضباط الطيران فما كاد يتقدم خطوة واحدة في الغرفة حتى أسرع جوليت إليه وكأنها تطير ولا تسير ...

— لاشك أنها زيارة غير منتظرة، ولكنى جئت

فوق أكتافهم وساروا بها بطوفون الشوارع
وسط الجموع الزاخرة

كان شعرها الرمادي الجميل قد انتثرت خصلاته
وتشمت وجعل يتحرك تبعاً لحركات الريح، ورفعت
كلتا ذراعيها في حماس شديد ثم جمعت تنشد في
صوت قاصف نشيد المارسييز ، فلما انتهت من
إنشادها حياها الجمهور بالهتاف والتصفيق

ولم يكن بطبيعة الحال بين هذه الجموع الهائلة
من الناس من يعرف من تكون هذه المعجوز
الشمطاء . غير أن مجرد وجودها بينهم أثار فيهم
ذلك الاحترام الغريزي الذي توحى به الشيخوخة
دائماً ، وكان بعضهم يرى فيها رمزاً حياً لمظمة
الثورة الكبرى وأثراً من آثارها ظهر فجأة بعد
فترة من الزمان تزيد على القرن ...

ولم يعب وقت طويل حتى انفض الجمع ووجدت
المعجوز نفسها منتصبية على قدميها وسط الشارع
وحيدة ...

أين الجموع الحاشدة ؟ أين البنادق التي كانوا
يلوحون بها في الفضاء ... ؟ أين الشباب المتحمسون
الذين رفعوها فوق الأعناق ... ؟ لقد اختفى الكل
وليس تدري أين ولا كيف اختفوا

إنها الآن تسير في الشارع الملكي إلى جانب
تلك المطاعم النموذجية الكثيرة ... وها هي حانة
مكسيم الشهيرة أمامها وقد خرج عمالها إلى الشارع
يوزعون أقذاح الخمر على المارة تبرعاً من أغنياء القوم
واحتفالاً بذلك اليوم السعيد

وتقدمت في السير قليلاً فوجدت نفسها بين
جماعة من الجنود الأمريكيين يتبادل وإياهم الحديث

الستار جمعت مخاطبه في صوت هامس قائلة :
— أسمع الله مساءك يا صغيري لقد هجرناك
الجميع ونسوك . هكذا الحياة يا صغيري فلا تحزن .
واعلم ان جدتك المعجوز لن تتركك ولو تركك أهل
الدنيا بأسرها ... ستجدني هنا كل ليلة ... كل ليلة
يا صغيري المحبوب

أخذت الأخبار والأشاعات تنتشر في الساعات
الأولى من مساء اليوم بانتهاء الحرب وحلول السلام .
بدأت ضميعة خافتة غير مؤكدة ، واستتمت المعجوز
إليها دون أن تميرها أى التفات لأنها تعودت أن
تسمع أمثالها من قبل ، ثم انضح لها كذبها
بعد ذلك

ولكن لم يكذب محل وقت الغروب حتى تأكد
الناس من صحة تلك الأخبار إذ أعلنت الحكومة
خبر عقد الهدنة

وبغير أن تعرف المرأة كيف حدث هذا ولا في
أى وقت حدث وجدت نفسها وسط جمهور كبير
يدفعها تيار اندفاعه وتزاحمه نحو قلب المدينة دون
أن تستطيع لذلك وقفاً ودون أن تستطيع منه خلاصاً .
وسرعان ما سيطرت عليها روح الجماعة فمرتها رجفة
الحماسة وانتقلت إليها عدوى الفرح فهتفت مع
الجماعات الهائفة التي كانت تملأ الشوارع

ووصلت إلى ميدان الكونكوردد . وكان
الجمهور يردد بأصوات كهزيم الرعد بعض الأناشيد
الوطنية وقد أخذ بعض أفراد بلو حون بينادق
مأخوذة من الألمان كانت معروضة في الميدان
وأقبل نحو المعجوز جمع من الشبان فرفعوها

وأخيراً دخلوا جميعاً أحد المغامي وظلوا نحو نصف ساعة في سرور ومرح يحسبون أكوام البيرة التي قدمتها المجوز إليهم ثم انصرفوا أما هي فقصدت إلى الحانة التي تمودت أن تلتقي فيها بالعم « كرانفيل » فيلسوف السوق فوجده جالساً جاسته الخالدة التي لا يغيرها فخيته وجلست إلى جانبه وطلبت لها وله زجاجة من زجاجات النبيذ، ولكنها ما كادت تفرغ من نصيبها من الخمر حتى شعرت بحاجتها إلى مسرة أكبر وأروع مما وجدت من أنواع المسرات في تلك الليلة. ذكرت دار الصور بظلامها الذي يبعث الاطمئنان والسكينة في أشد النفوس اضطراباً خلافاً لكل ظلام عرفه الانسان، ومناظرها الجميلة التي كانت في نظرها لا تنقل جمالاً عن أجل ما عرف الانسان من مناظر

ياله من شعور سار ! وياله من سرور جارف ذلك الذي كان يستولى على حواس تلك المرأة أثناء هاتين الساعتين اللتين كانت تقضيهما جالسة على مقعد مرصع تتناجى ، كأروع ما تكون المناجاة الروحية ، مع حفيدها المحبوب ألبير ! لا شك أنه لم يسمع بعد بذلك النبأ السعيد الذي هز مشاعر الباريسيين عن بكرة أبيهم بل مشاعر الناس جميعاً في جميع أنحاء الأرض ، ولكنها ذاهبة الآن إليه وسوف تسر إليه بذلك النبأ ليأخذ نصيبه من السعادة مع الآخذين

التفتت إلى كرانفيل ثم قالت وهي تنهض من مكانها :

— طاب مساؤك يا كرانفيل . سأتركك الآن لأن حفيدي ألبير في انتظاري . مسكين هذا

كانت تحب الأمريكيين وقد عرفت أن هؤلاء الشبان منهم عندما رأت قبعاتهم ، وقد أعجبها منهم حسن منظرهم ودلائل الصحة البادية في وجوههم وفي حركاتهم ، وروح المرح المتجلية من أحاديثهم وإشاراتهم ، وذكرها أكثر من واحد منهم بحفيدها ألبير فتهفت بأعلى صوتها :

— لنحى الولايات المتحدة ! !

أما هم فكانوا يفهمون حركاتها وإشاراتها أكثر من فهمهم لكلماتها ؛ غير أن هذا لم يكن يعينها في كثير ولا قليل ، بل كانت تعتقد أن كل ما يحتاج إليه المرء للتفاهم مع الأجانب الذين لا يفهمون لغته ولا يفهم لغتهم هو أن يتبادل الود معهم وأن يكون حسن النية . وكأن طرب المجوز ومرحها قد أثرا في الأمريكيين فصاروا يضحكون ويقهقهون كأنهم أطفال كبار

وتلمست المرأة موضعاً معيناً في ثوبها حيث وضعت كيس نقودها الذي حملت فيه كل رأس مالها ؛ فلما اطمانت إلى وجوده في مكانه جملة تشير بكتلتها يديها معبرة عن رغبتها في دعوتهم للشراب على حسابها

غير أن الأمريكيين اعترضوا في أدب كثير واعتذروا من عند قبول دعوتها إذ أن فكرة السماح لامرأة أيا كانت بالاتفاق عليهم لم تكن لتروقهم ولكن المجوز صاحت في صوت قوى قائلة :

لا . لا . إنكم الآن في وطني ، في بيتي ، وأنا أصر على دعوتكم ؛ فإن رفضتم تلك الدعوة للتواضعة كان ذلك الرفض طعنة مؤلمة موجهة إلى . وما أظن أن إيلام امرأة مجوز مثلي يرضيكم ..

نمرض الليلة برنامجاً جديراً بالاعتبار
— ماذا ١٩

نظمت بهذه الكلمة صياحاً يكاد يكون باكباً؛
ثم أسندت جسمها المضنى إلى الجدار المجاور وبدأ
على وجهها المغضن شحوب كشحوب وجوه الموتى
وقد اتسعت حدقتا عينيها

وتطوع الحارس بتفصيل ما أجل فقال محاولاً
تخفيف وقع المصائب على المرأة

— لقد انتهى الأسبوع يا جدتي ونحن كما تعرفين
نغير برنامجنا كل سبعة أيام . إن الجمهور قد مل قصة
الازداسية الحسنة ومطاردها الألماني؛ ثم إن الله قد أنعم
علينا أخيراً بنعمة السلام فن الواجب أن نعرض
شيئاً يتناسب مع هذا المعنى الجديد في حياتنا . الناس
جميعاً يريدون من صميم أفئدتهم أن ينسوا الحرب
وشقاءها وأن يسعدوا أنفسهم؛ ونحن نمرض الليلة
لجمهورنا الباحث عن السرور والسعادة والمرح رواية
جديدة من روايات شارلى شابان؛ وأصدقك القول
يا جدتي أنه شريط سار فاذا شهدته فسوف تستغرقين
في الضحك

فأجابت في صوت يشبه الأنين :

— لن أراه بعد الآن ... لن أراه بعد الآن
ثم أخرجت من صدرها زفرة حارة عميقة وقالت:
— لقد قتلوه قتلة أخرى ...

كان منظر المرأة المتخاذلة داعياً لتجهم الناس
حولها ، فرأى الحارس منعاً لتفاقم الأمر أن يحاول
الترفيه عنها فأخذ يخاطبها قائلاً :

— رافى عن نفسك يا جدتي . أتقتلين نفسك

في ليلة كهذه الليلة لا لشيء إلا أننا غيرنا برنامج

الصبي ، إنه لا يستمتع بأجازة أو راحة بل يعمل
في كل الليالي

فشمر الفيلسوف في هذه اللحظة بقوة تدفمه
إلى توجيه نصيحة لصديقه فقال :

— إنك تقتلين نفسك . إنك تنتحرين دون
شك . تأكلين قليلاً وتشربين كثيراً . ترمين نفودك
بغير حساب . ولا شك عندي إذا استمرت الحال على
هذا المنوال أنك ستفقدين رأس مالك كله . ما هذا
يا امرأة ؟ لقد رأيتك بالأمس تبتاعين نصف بضاعتك
اقتراضاً ؛ ويخيل إلى أنك في الأسبوع الأخير عشت
أعواماً وأعواماً

ولكنه عاد بعد تلك المحاضرة فابتسم ابتسامته
الساخرة التي قلما فارقت ثغره وأردف قائلاً :

— على أنه إذا كان هذا يروقك وتجدين
فيه سعادتك ... فلا بأس

ثم همز كنفه كما تعود أن يفعل دائماً
وأسرعت المرأة قاصدة دار الصور . أسرع
على الرغم من شعورها بالتعب المضنى وعلى الرغم من
أن قدميها كانتا لا تطاوعانها على السير؛ وكانت تمنى
نفسها في أثناء سيرها بجلسة مريحة في تلك القاعة
المظلمة الهادئة الجميلة ، وكان الظلام سائداً على المدينة كما
كان يسودها قبل إعلان الهدنة وقد انتشرت في أنحائها
جماعات من الهاتفين والراقصين وفرق الموسيقى

واقتربت أخيراً من مدخل الدار فحياها الحارس
وهو يضحك ، ولم يضحك ؟ أليس سعيداً ؟ أليس
الجميع سعداء في هذه الليلة ؟

ولكنه كف عن الضحك فجأة كأنه تذكر
شيئاً لم يكن يذكره وقال :

— لقد ترك حفيدك العمل هنا وذهب ونحن

إحساناً ؟ إنه يوم عيد وسوف يرى الناس شيخوختها
المحطمة وعلامات الأسى والتعب بادية عليها فلا
يتأخرون عن مساعدتها

ولكنها سرعان ما استعادت كبرياءها المفقودة
فقالت مخاطبة نفسها :

— إننى لم أسأل الناس إحساناً قبل الآن ؛
وأظن أن هذا وقت متأخر غير مناسب للبداية فى
هذه الدلة ومع ذلك يجب أن أراه ... يجب أن أراه
مهما كلفنى الأمر

وتقدمت قليلا غير أنها توقفت بعد لحظة
قصيرة واستندت إلى جذع شجرة من الأشجار
المنتشرة على طول الطريق ؛ وكانت أبواب الحانات
والمراقص المقابلة تلمع فى ناطقها كأنها أبواب
الأفران المستمرة ؛ وكانت الأصوات المنبعثة
من الفرق الموسيقية المنتشرة فى كل مكان تسبغ
على الجوروحا من المرح والسعادة
وتنهدت المعجوز قائلة :

— يا لبعده المكان ... يا لبعده !

ولحظة قصيرة رأت من خلال الدموع التى
ملأت عينيها شيئاً غريباً ... رأت أمامها شبح
جندي يتشم ... جندي يرتدى ثوباً أبيض ناصع
البياض يغطيه من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه

يا للغرابة ... ! إنه جسم شفاف لا يحجب ما
خلفه من مرثيات ؛ وهما هى تستطيع أن ترى أشجار
الافريز المقابل واضحة كل الوضوح على الرغم من
اعتراض جسمه للمسافة القابعة بينها وبين تلك
الأشجار ... كأنه جسم من الزجاج أو من البخار

الدار : هذا كثير يا سيدتى وعلى كل حال سوف أرى
ثم أتجه نحو بائمة التذاكر وسألها عن شيء ما
فسرعان ما قدمت إليه كراسية صغيرة أخذ يفحصها
على ضوء الصباح القريب وهو يتعمق قائلاً :

— فلنر هذه القصة الملأى بالتواء قصة الأتراسية
أين هى الآن ؛ يجب أن تكون معروضة فى مكان
آخر ... شريط عفن هو مجموعة من السخافات ..
أين هو الآن ؟ آه ها هو

ثم اقترب من المرأة وأفضى إليها باسم دار من
الدور الحفيرة وسمى لها الشارع الذى تقع به

— دار بعيدة قليلا يا سيدتى ولكنك هناك
سترين حفيدك. ثم ابتعد عنها ولم يعد يديرها أى
التفات إذ أن الجمهور بدأ يقبل نحو الدار لمشاهدة
البرنامج الجديد

وعادت المرأة مرة أخرى إلى الطريق وأخذت
تسير وقد استوت عليها فكرة واحدة فجاءت
تتمم قائلة

— لقد قتلوه مرة ثانية .. قتلوه فى هذا اليوم
الذى يشمر فيه الجميع بالسعادة

وتحسست كيس نقودها المرة الثانية فى هذا
المساء فلم تجد فيه إلا القليل من القطع النحاسية
مما يكاد يكفى لشراء تذكرة واحدة فى دار «السينما»
التي تعرض الرواية . ولكنها كانت متعبة ، كانت فى
أشد الحاجة إلى الراحة والمكان بعيد فإذا تصنع ؟
لا شيء ... ليس فى وسعها إلا أن تسير ، وكيف تسير
وقواها خائرة ... فليكن ... يجب أن تسير ...
قدماها لا تطاوعانها ...

وصرت بذهنها فى تلك اللحظة فكرة غريبة
ماذا يحدث لو أنها مدت يدها وسألت الناس

ها هو ذا الجندى يشير إليها إشارة معناها أن يتبعه ، انتظرنى ... أنا آتية ... ها أناذى آتية يا حبيبى ...
وها هو ذا يتقدمها فى السير ، وها هى تحاول بكل قواها (السورس) محمد محمود درارة

الى راسى اللغة الفرنسية فى جميع سنى الدراسة ، الى رافعى اللوحات بوظائف
البنوك والشركات الازهرية ، الى المجردة الذهبية برغبته فى تفهم ألباب الفرنسية
وأمرها عن طريق المقارنة مع انقائه النظم : كتاباته جديده :



استكمالى التأليف بمفردات ، محادثات ، رسائل ٨ موضوعات
هنا خير كتابين يعيد لك الفهم فى نفسك . الأول عن طريق المقارنة بين
لغات ثلاث . والثانى لميك أنطق بالصحيح قية . فهما الكتابان اللذان تسم
على كل يوم يفوتك بدون أن تلاحظهما . كتابان ميسر الكتاب فمن كل منهما مجلدا ٦

أن تنفذ مشيئته فلا
تستطيع

— إننى متعبة

يا ولدى ... جسمى

مضى ... أطرافى

تنضح بالألم ... لا

أستطيع أن أتبعك ...

إن المسافة طويلة ...

طويلة

ثم ارتعت على

جذع الشجرة فى غير

توازن ، فأجبه إليها

الجندى وقد بدت على

وجهه الجليل علامات

الحزن العميق ، فرفت

ناظرها إليه وقالت

فى صوت هاس وفى

لهجة تم عن الاعتذار

الشديد :

— لا تحزن ...

لا تحزن يا بنى ولا

تغضب ... آه لو تعلم

مقدار ما أعانى ومقدار

عجزى عن الحركة ، إذن

لعذرتى ... ولكن

ثق ... ثق أن جدتك

لن تتركك أبداً . ألبير